

في ارض الجليل

من دمشق ركبنا قطار السكة الحجازية قاصدين الى بلاد الجليل فاجتاز بنا سهول حوران وجزءاً من وادي الأردن والغور ومعالم البلاد التي سررتنا بها تبعث النفس على النظر والعين كل التحديق والفكر على التأمل لما جرى فيها من الوقائع والحوادث في سالف الاعصار وان ارضاً اخرجت رسولاً كالسيد المسيح عليه الصلاة والسلام فكانت مهوى افئدة اهل النصرانية في العالم على اختلاف الاعصار والاقطار لحرية بان تزار معاشطت بتاصدها الديار فما بالك وهي الآن مناتى بضع ساعات في قطار البخار . وان بلاداً مضي على ابناء اسرائيل الوف من السنين وهم لم يياسوا من استرجاعها الجديرة ان يخفف اليها كل من يروم البحث في اجتماع الامم واقترافها

يحد بلاد الجليل شرقاً الأردن^(١) وجنوباً الكرمل وجبال افرايم وغرباً ببحر الروم وشمالاً فينيقية ولبنان وتسمى هذه البلاد جليل الامم لكثرة الامم فيها وفي الجليل تربى يسوع وفيها صرف اكثر مدة خدمته جبراً فدعي جليلاً وكان تلاميذه جليليين ماندا يهوذا الاسخريوطي واشتهر الجليليون بشدة البأس فقال بوسيفوس المؤرخ اليهودي الذي كان هو نفسه جليلاً انهم كانوا يقرنون على استعمال كل انواع الاسلحة منذ الصغر . وقد اشتهروا بشدة مقاومتهم للرومانيين وآل خراب اورشليم الى نجاح الجليل فاصبحت دار العلوم اليهودية وقتل اليها السنهدريم « مجمع الامة العظيم » فجعل اولاً في اوشته وهي الآن خربة هوشته قرب شفاعمرو ثم نقل الى شفرام وهي الآن شفاعمرو ثم الى بيت شعرايم وصفوري وطبرية وكانت الجليل متسومة الى قسمين الجليل السفلى وطولها من طبرية الى زبولون قرب عكا وعرضها من قرية كسالت قرب نابور الى بير سبع (غير بير سبع في الجنوب) وكان فيها على رواية بوسيفوس ٢٤٠ قرية وفي اصغرها ١٥٠٠ من السكان والجليل العليا طولها من ميلون غرباً الى طلة قرب الأردن شرقاً وعرضها من بير سبع جنوباً الى بقعة على حدود ارض صور شمالاً

ومعنى الجليل بالعبرانية الدائرة او المنطقة^(٢) وكانت تطلق خاصة على القطر الشمالي

(١) مرشد الطلاب الى جغرافية الكتاب للنس اسعد منصور

(٢) دليل الارض المقدسة الجديد بدستريمان - P. Barnabé Meister
mann. Nouveau Guide de Terre Sainte 1907

من ارض الموعد وفيها عشرون مدينة اعطاها سليمان الى ملك صور لقاء خدمه في عمارة
العبد في القدس وكان يسكن هذه البلاد جمهور من الوثنيين ومن هنا اشتهت اسمها
جليل الامم وكانت بلاد الجليل تمتد على عهد عيسى الى مغلف بحيرة طبرية ثم دخل
فيها سهل يزرعيل «مراج ابن عامر» وعلى عهد السيد المسيح كانت عبارة عن ارض عازر
ونفتالي وزبولون وازياخار وظلت منتسمة الى جليل الى جليل اسفل الاول تمتد الى
شمالى الخط الممتد من عكا الى كفر ناحوم والثاني يدل فيه القسم الجنوبي

ويمكن على الجملة ان يقال ان ارض الجليل واتعة اليوم في الجهة الشمالية من بلاد
فلسطين بين لواءى عكا ونابلس وفي الجهة الغربية من نهر الأردن ويدخل فيها قضاء
صفد وقضاء طبرية وقضاء الناصرة وبعض قضاء جنين ومن اعمالها مرج ابن عامر وكانت
اهم مدن الجليل بطول مايس التي اصبحت فيما بعد عكا^١ وصفورية والناصرة وكفر كنا
ويشولي وكفر ناحوم وسكانها كما هم الآن مزيج من امم مختلفة واهم عناصرتهم اليهود
والاشوريون وكان هذا الاقليم على عهد ظهور النصرانية عاراً جداً بالسكن غنياً مزهراً
وله حياة سياسية كاله حياة دينية وجميع انواع العبادات والمذاهب تجري فيه حرة
مطلقة لاشي^٢ ينقص عليها امرها وتكثر فيه النباتات والزهرة من كل نوع وفيه غابات
كثيرة كان يستخرج منها خشب السفن

وعرف العرب ارض الجليل بجبل الجليل فقال ياقوت ان جبل الجليل في ساحل
الشام تمتد الى قرب حمص «كنا» كان معاوية يجلس في موضع منه من يظفر به من
يزيد بقتل عثمان وقال ابن الفقيه وكان منزل نوح عليه السلام في جبل الجليل بالقرب
من حمص في قرية تدعى سحر ويقال ان بها فار النور قال وجبل الجليل بالقرب من
دمشق ايضاً وهو جبل يتبل من الحجاز فما كان بفلسطين منه فهو جبل الحبل وما كان
بالأردن فهو جبل الجليل وهو بدشقي لبنان ويجمع سنير وهذا التعريف اقرب
الى الجلاء من غيره . وقال ابن عساكر ان جبل الجليل من اعمال صيدا . وبيروت من
ساحل دمشق . وهو تعريف حسن في الجملة قال ابو قيس بن الاسات

فأولاً ربنا كنا يهوداً وما دين اليهود بندي شكول

ولولاً ربنا كنا نصارى مع الرهبان في جبل الجليل

ولكننا خلقنا اذ خلقنا حثيف دننا عن كل جيل

قلنا ان ارض الجليل كانت معترك الامم والاديان من قديم الزمان ولقد جاء عليها عهد ايام الرومان كانت فيه الاديار والبيع والمعابد مبثوثة في كل بقعة من بقاعه وقرية من قراء ولما فتحها المسلمون تعلموا اهلها بالرفق واقرروهم على عبادتهم شأنهم في فترحاتهم ولكن دالت الدول وكثرت الاعصار وجيشت ملوك اوربا على الشرق جيوشها في القرون الوسطى وكانت الحرب الصليبية سجلا بين المسلمين والصليبيين في هذه الارض مدة قرنين فلا عجب اذا شهدنا اسوار المدن مهدمة وآثار البيع والاديار معنفة دائرة واشجار ذلك الصقع وغاباته مدمرة وكثيرا من مدنه قرى صغيرة او مزارع بارزة

خربت هذه الديار بادوار اتت عليها كان القول انفصل في سياسة حكومات الارض لرجال الدين وكان اهل الصليب من امم اوربا كلما ارادوا ان يرجعوا ادراجهم ويتخلوا عن هذه الارض يحجز ارواحهم حافز من النساسة والشمامسة ومن لف لقمهم من حملة الدين فيلقون بانفسهم في آثر صعبة ويركبون الى نيل اوطارهم كل ذلول وصعبة فتردهم جيوش المسلمين عن استباحة حرم الاسلام لان فلسطين اوسورية اذا ملكها الافرنج يضيع الاسلام المسجد الأقصى ويوشك ان يكون اخطر محدقا بالحرمين الشريفين مبعث الوحي والرسالة ومحج اهل الاسلام من العالمين ولذلك هاجم الصليبيون هذه الديار بسائق الدين ودافع عنها المسلمون بسائق الدنيا والدين فكثرت الغلبة لاهل هذه البلاد وقتلا ظفر مهاجم ورجع الدخلاء عنها مدحورين ولكن بعد ان خرب العامر والغامر واصبحت قراء جرداء لا تعبد فيها خضرًا ولا غضرًا .

ولقد كانت طبرية عاصمة الجليل ولها شأن مذكور بين مدن تلك الارياض اُسست عام ١٧ للمسيح على يد هيرود انتيباس حاكم الجليل الذي جعلها عاصمته وسماعا بالاسم الذي عرفت به الى اليوم اكراما لحاميه الامبراطور طيباريوس الروماني وكانت المدينة جنوبي موقع المدينة الحالية اولا اي حوالى الحملات المعدنية ويسمى اليوم ذاك المكان بخربة الحمام وذلك لانه اكتفت مدافن وقبور في مكان المدينة القديمة فابى اليهود ان يكتسوها لان خرق حرمة المدافن بعد عندهم من الكبار . ولم يستطع هيرود ان يسكن طبرية لاول انشائها الا باناس من طبقة واثمة انعم عليهم بانواع الاحسان واغدى عليهم الاعطيات ترغيبا لهم ولما توفي عليها عهد الامبرطور فيرون الى اغرية الغنى بالولاية اعياها سنة ٤١٤ فلم يكن منه الا انه استعمل طبرية عن مكانتها واختار صفورية لتكون عاصمة الجليل ولما انتفض اليهود على الرومانيين عهد الى المؤرخ يوسيفوس ان يكون وليا على

الجليل الاسفل والاعلى فخص طبرية وكان يشاء اليهود تقوؤ الدولة على الشافرين من اهلها . واستسلم اهل طبرية للسياسيين ونفخوا له ابوابها لما دخل الجليل حينئذ فكان ذلك سبب انعام الرومانيين عليهم وبسروب الاحبار بعد خراب بيت المقدس . ولئن صحق الامبراطور اذريانس الابنة الاسراييلية انشأ له معبدا في طبرية لاجلته الاوثان فقد ظل تنوذ اليهود مستحكما بعده . وان عند اليهود طبرية يخرج شرعية اسرائيل من المدن القدرية فان لرباين منهم اختاروها وبنوا فيها معبدا . وجعلوها معبدهم الجديد وسيفه اواخر القرن الثاني انتقل من مغربية الى طبرية كزار رجال الملوك عتدم ونشأ منهم ربانية عظماء . يقدسونهم ويمجدونهم ومنهم الذين جمعوا المعبر من شرعية اسرائيل ودخلت النصرانية في القرن الرابع الى طبرية .

فحقت طبرية على يد شرجيل بن حنة في سنة ١٣ هـ مسلما على أهدافه نازلهم وكنائسهم وقبيل انه حاصر ما يلائم صالح اهلها على انقدهم واموالهم وكنائسهم الا ما جلوا عنه وغلوه واستثنى لمسيح المسلمين موضعاً ثم تقصوا في خلافة عمر رضي الله عنه واجتمع اليهم قوم من شواذ الروم فسيرهم عبيدة اليهم عمرو بن العاصي في اربعة آلاف ونفحها على مثل صلح شرجيل وفتح جميع الأردن على مثل هذا الصلح بشير قتال قال يانوت وهي بايدة معلقة على الجعيرة المعروفة بجعيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور مطل عليها وهي من اعمال الأردن في طور النمرية . وبين دمشق ثلاثة ايام وكذلك بينها وبين بيت المقدس وبينها وبين عكا يومان هي مستعيلة على الجعيرة وعمرتها قبل حتى تاتي الى جبل مغيرة لعمده آخر العارة .

ولما فتح الصابريون بيت المقدس اقطع ملكها غنود فرى دي بوليرن ولاية الجليل . الى تنكريد لجعل حاسمتها طبرية فأنشئت مدينة حديثة شمالي القديمة وهي الموجودة اليوم وفي سنة ١٨٧٢ اقبل وقعة حطين . كان تلك طبرية ترمون الثالث كوت طرابلس فسقطت المدينة بيد صلاح الدين الايالة وكان فيها امرأته اولاده فمالت الامان من صلاح الدين فأمنها وانصرفت عنها تلحق بزوجها ونفذت ما يريد في سنة ١٢٣٩ ملكاً لاو دي مويلارد بموجب معاهدة عقدت بين الملك الصالح ايوب سلطان دمشق ضد ملك مصر فاستعادها هذا بسد خمس سنين وزبح الخليفة وناصري فيها يقول

الافرنج واخذت هذه المدينة بالانحطاط حتى ان الرسالة كارسيموس لما زارها سنة ١٦٢٠ لم يرف فيها احداً من اليهود ووجد سكانها كلهم من المسلمين وحكم طبرية ظافر المعمر حاكم عكا وهو الذي بنى سورها المتهدم الحالي سنة ١٧٣٨ وجمده ابراهيم باشا المصري سنة ١٨٣٣ ولكن اصبحت بعد اربع سنين من هذا التاريخ يزوال لم يبق منها ولم يذر هالك فيه سبعة اشخاص وقوضت اركان ابنتها كافة وقيل سكانها المسلمون ونزلها يهود من اطراف الارض وهم اليوم اكثر من ثلاثة ارباع سكانها لا يقلون عن سبعة آلاف فيهم انساوي والبرلوني والرومي وغيرهم

واما في طبرية حماماتها ويحيرتها قل علي بن ابي بكر المصري : اما حمامات طبرية التي يقال انها من عجائب الدنيا فليست هذه التي على باب طبرية على جانب البحيرة (المعروفة اليوم) فان مثل هذه كثيرة ما رأينا في الدنيا واما التي من عجائب الدنيا فهو موضع من اعمال طبرية شرقي قرية يقال لها الحسينية في واد وهي عمارة قديمة يقال انها من عمارة سليمان بن دارد وهو هيكلي يخرج الماء من صدره وقد كان يخرج من اثني عشرة عيناً كل عين مخصوصة بمرض اذا اغتسل فيها صاحب ذلك المرض ربي باذن الله تعالى والماء شديد الحرارة جداً صاف عذب طيب الرائحة ويقصده المرضى في قنفون به وعيون تصب في موضع كبير حار يبع الناس فيه ومنفعته ظاهرة وما رأينا ما يشابه الا الشرميا قلنا وان ما يشير اليه من الحمامات بانه في واد بعيد عن طبرية وهو من عجائب الدنيا يشير فيما نحسب الى «الحمة» الواقعة في وادي اليرموك على طريق الخط الحديد عند الكيلومتر ٩٣ و ٩٥ (١) قال ابو القاسم في وصف حمة طبرية وفيها عيون ملحمة حارة وقد بنيت عليها حمامات فهي لا تحتاج الى الوقود تجري ليلاً ونهاراً حارة وبترتها حمة يغمس فيها الجرب وبها مما يسل الغور ينثا وبين بيسان حمة سليمان بن داود عليه السلام ويؤمنون انها نائمة من كل داء اه

وهذه الحمة الاخيرة اي حمة سليمان لا تزال الى اليوم معروفة بجمام سيدي سليمان وهي احدى الحمامات الكثيرة في جنوب طبرية على نحو كيلومترين منها ويجري الماء الى الحمامات من اربع عيون حارة واما ما بناه ابراهيم باشا وهو في الشمال ويعرف باسمه وهو عبارة عن حوض كبير تحيط به عمد قديمة من الرخام وتليه قبة عظام وهي مشقوبة بشقوب اسطوانية يخرج منها البخار ودرجة حرارة الماء ٦٢ بالميزان المثوي وهو صاف

براق في الجبل ملح الطعام مرهوق وتبعث منه رائحة شديدة من حامض الكبريت او رائحة بيض فاسد. وهذه الحمامات ملك الحكومة توجرها من تبريد لقاء الف ليلة في السنة وفيها مغاطس في مكان آخر قد يغير صاحب الحمام مياهها في الاحايين ولكنها كسائر اقسام الحمامات الاربعة غير صحيحة لان اناسا كثيرين من ارباب الامراض المختلفة ينزلونها في وقت واحد ويخشى ان تسري جراثيم بعض الامراض الى جسم من كان منها سليما فيخسر بانغماسه في هذا الماء من حيث يريد الريح ولورببت هذه الحمامات ترتيباً صحيحاً كما هو الحال في حمامات مارينباد في النمسا وبورصة في الاناضول وحوان في مصر وأثبتت هناك كما هو رأي بعض المفكرين في عمران هذه الديار للانتفاع بخصائصها الطبيعية فنادق وحدائق واماكن تتوفر فيها لوسط الراحة ومرافق الحياة جلبت المستجمعين في هذه الحمة من اقطار الارض كما تجلب حمامات بورصة وحوان ومارينباد وباد

وموسم الاستحمام بهذه الحمامات من اول كانون الثاني الى آخر حزيران^(١) وتختلف الحرارة في الصيف في طبرية من ٣٥ الى ٤٢ ولكن الهواء حسن في الجبل فلا يؤثر في سكانها الاصليين كثيراً بقدر تأثيره في الغرباء ولذلك صدق ما قاله فيها ابو عبد الله ابن البناء : طبرية قصبة الأردن بلد وادي كنعان موضوعة بين الجبل والبحيرة فهي ضيقة كربة في الصيف وخمة وبثة وطولها نحو من فرسخ بلا عرض وسوقها من الدرب الى الدرب والمقابر على الجبل بها ثمان حمامات بلا وقيد حارة الماء والجامع في السوق كبير حسن فرش مرفوع بالحصى على اساطين حجارة موصولة ويقال ان اهل طبرية شهرين يرقصون من كثرة البراغيث وشربين يلوكون يعني البقي فانه كثير عندهم وشهرين يشافقون يعني بايديهم العصي بطردون الزنايبير عن طعومهم وحلاوتهم وشهرين عراة يعني من شدة الحر وشهرين يزمرون يعني يمصون قصب السكر وشهرين يخوضون من كثرة الوحل في ارضهم قال واسفل طبرية جسر عظيم عليه طريق دمشق وشربهم من البحيرة وحول البحيرة كله قرى متصلة ونخيل فيها سفن كثيرة وهي كثيرة الاستماك لان طيب لغير اهليها والجبل مطلق على البلد وماءها عذب ليس بمحلول.

ويرى اطباء العصر ان مياه طبرية الحارة ترفع النساء في وظائفهن التناسلية وتؤتي كل الشفاء من الاوجاع العصبية الحادة والمزمنة ومن امراض الرثية « الروماتيزم » ومن ضعف المجموع العصبي ومن داء النقرس ومن البول السكري ومن المدة السوداء

« لا برخندريا » ومن امراض اعضاء التناسل ومن الاورام المنفالية التي هي في حال الوقوف كما قد تنفع في التهاب قصبة الرئة « ريونشيت » المزمن وبعض امراض الانس والمانجرية المزمنة والامراض الجلدية وعدم انتظام حركة سلسلة الخنثار واختناق الرحم والبول الزلالي والشدون الرئوي وغيرها

اما بحيرة طبرية فقد قال فيها واصفها من الاربع انها الخوض الثاني الذي يملأه نهر الأردن في طريقه عند انحداره من قيسارية الى بحيرة لوط وسطح مائتها على ٢٠٨ امتار تحت سطح البحر المتوسط وعمق البحيرة ٤٥ متراً في وسطها ولا يملكه يبلغ ٢٥٠ متراً في الجبل المجاورة للشالي* الجنوبي من البحيرة اي قُرب سمخ التي يركب منها الى طبرية في قارب في البحيرة ساعة او يركب في مركبة على اليابسة ساعة ونصفاً.

وطول البحيرة ٢١ كيلومتراً من الشمال الى الجنوب وعرضها تسعة كيلومترات ونصف اي ان مساحتها السطحية ١٧٠ كيلومتراً مربعاً ومياهها قابلة للشرب في الفصول الاربعة وفيها كثير من السمك الجيد والجلال التي تقيط بالبحيرة في الجنوب الغربي تنفرج عنها في الشمال الغربي يتألف منها نصف دائرة متسعة وفيها يكون سهل الدير *Genesareth* الخصب وتلي ثمانية متر من البحيرة الى الانابي عدة قرى وبينها مدينة صفد القديمة وفي الشمال من البحيرة سهل عموش *Omush* يشعربص الأردن وفوق السهل المتوج الذي يفصل بحيرة طبرية عن بحيرة الحولة او مياه ميردم *Les eaux de Mérom* تنظر الى قنن جل حرمون (الشيخ) المسكلة بالثلج ويحد البحيرة من الشرق والجنوب الشرقي منحور عالية هائلة يبلغ علوها نحو ثلثمائة متر وهي تحمل سطح الجولان *Gaulanitide* وفي الجنوب بفرج الغور ثمانية فيمتازه الأردن ويملون فيؤلف اضواجا *Méandres* عديدة

وكان اسم هذه البحيرة في القديم كنزيت اشارة الى شكها البيضي الذي يشبه عود الطرب واسمه بالعبرانية كنزور على ان هذا الشكل هو عام في جميع البحيرات التي تقيط بها الجبال ويختازها نهر وكانت كنزيت معروفة قبل العبرانيين من مدن الكنعانيين وبعد سبي بابل دعت البحيرة ببحيرة الفري اخذاً من اسم السهل الخصب الذي يصل الى شواطئها من الشمال الغربي وسميت في العهد الجديد ببحيرة الجليل وبحيرة طبرية وهذا الاسم هو الذي اطلته عليها العرب

ولم يخل هذا البلد على حرارته من رجال في الاسلام ولدوا ونشأوا وكانت لهم

بد في خدمة المسلمين مثل الامام الحافظ سليمان بن احمد بن ايوب بن مطير ابي القاسم الطبراني « احدا لائمة المعروفين والحفاظ المكثرين والطلاب الرحالين الجوالين والمشايع المعمرين المصنفين المحدثين والثقات الاثبات المعدلين » وغيرهم ممن يفتي الدهر والخلف يتناقل عن السلف اعمالهم

وكان الأردن على عهد الفتح الاسلامي احد اجناد الشام الخمسة^١ وهي كورة واسعة منها الغور وطبرية وصور وعكا وما بين ذلك قل احمد بن العلي بن الطيب الدرسي الفيلاسوف هما أردنان أردن الكبير وأردن الصغير فالما الكبير فهو نهر يصب الى بحيرة طبرية بينه وبين طبرية لمن عبر البحيرة في زورق اثنا عشر ميلا تجتمع فيه المياه من جبال وعيون فنجري في هذا النهر فتسقي اكثر ضياع بلاد الاردن مما يلي ساحل الشام وطريق صور ثم تنصب تلك المياه الى البحيرة التي عند طبرية وطبرية على طرف جبل يشرف على هذه البحيرة فهذا النهر في الاردن الكبير بينه وبين طبرية البحيرة واما الاردن الصغير فهو نهر يأخذ من بحيرة طبرية ويمر نحو الجنوب في وسط الغور فيسقي ضياع الغور واكثر مستغلام السكر ومما يحمل الى سائر بلاد الشرق وعليه قرى كثيرة منها بيسان وقرأوا واربجا والعوجاه وغير ذلك وعلى هذا النهر قرب طبرية قنطرة عظيمة ذات طافات كثيرة تزيد على العشرين ويجمع هذا النهر ونهر اليرموك فيصيران نهراً واحداً فيسقي ضياع الغور وضياع البنية ثم يمر حتى يصب في البحيرة المذنية في مرف الغور الغربي وللاردن عدة كور منها كورة طبرية وكورة بيسان وكورة بيت رأس وكورة جدر وكورة صفورية وكورة صور وكورة عكا وغير ذلك وقد فتح طبرية لما انتفضت عمرو بن العاص كما قلنا فتحها الى مثل صلح شرحبيل وكذلك جميع مدن الاردن وحصونها ففتح بيسان وابق وجرش وبيت رأس وقدس والجولان وعكا وصور وصفورية وغلب على سواد الاردن وجميع ارضها.

في وادي الاردن بين قرية لوبية وطبرية في سهل قرية حطين وقعت الواقعة الماثلة بين جيوش الصليبيين وجيوش المسلمين ورأسهم صلاح الدين التي قال فيها مؤرخو الصليبيين انها كانت في الرابع من تموز سنة ١١٨٧ م وكان جيش الافرنج مؤلفاً من التي فارس وخمسين الف راجل اشتد بهم العطش لقلّة الماء هناك وبرحت بهم تباريح قبل الواقعة بيومين وهبت عليهم ريح شرقية وهي المعروفة بالخمسين فن لم يسلم الروح

(١) بلقيس الخوي

ظلاً اسلمها لل سيف وانهزم الكنت ريموند صاحب طرابلس فاستولى صلاح الدين على
الامكة وقتل من ملوكهم صاحب الكرك ونودي شاذليون الذي كان غزا الحجاز واحب
فتح الحرمين فنذر صلاح الدين ان هو ظفر به ان يقتله بيده وكذلك كان واستسلمت
سائر المواقع لارادة الجيش الصلاحي

وكان صلاح الدين قد نازل طبرية ونقب بعض ابراجها ونهب المدينة واحرقها فلما
سمع الفرنج بذلك اجتمعوا المشورة فاجتمعوا الى التقدم فركبوا واشتد القتال وصبروا لفرقان^(١)
ورمي جالبيتية المسلمين من القشاب ما كان كالجوارد المنتشر والافرنج يقاتلون سائرين
نحو طبرية لعلمهم بريدون الماء فلما علم صلاح الدين مقصدهم صدم عنه وكان بعض
المنطوعة قد اتى في تلك الارض نارا وكانت الحشيش كثيرا فاحترق وكانت الريح
فحملت حر النار والدخان اليهم فاجتمع عليهم العطش وحر الزمان وحر النار والدخان
وحر القتال فلما انهزم القمص (الكنت) سقط سيفه ايديهم وكادوا يستسلمون ثم علموا
انهم لا ينجيهم من الموت الا الاقدام عليه فحملوا حملات متداركة كادوا يزيلون المسلمين
على كثرتهم عن مواقعهم الا ان الفرنج لا يحملون حملة فيرجعون الا وقد قتل منهم
فومئذ لذلك وهنا فارتفع من بقي منهم الى تل بناحية حطين وارادوا ان ينصبوا خيامهم
هناك فاشتد القتال عليهم من سائر الجهات واخذ المسلمون صليبهم الاعظم الذي يسمونه
صليب الصابوت ويذكرون ان فيه قطعة من الخشب التي صلب عليها المسيح عليه السلام
فيما يقال فكان اخذه من اعظم المصائب الى ان امر المسلمون من نجا من حشد السيف
وفيه الملك واخوه والبرنس ارنلظ (ارنولد) صاحب الكرك ولم يكن في الفرنج اشد
منه عداوة للمسلمين واسروا ايضا صاحب جبيل وابن هنفري ومقدم الداوية وكان من
اعظم الفرنج شأنا واسروا ايضا جماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية (الاسبتالية)
وكثير القتل والامر فيهم فكان من يرى القتلى لا يظن انهم اسروا واحداً ومن يرى
الامرى لا يظن انهم قتلوا واحداً وما أصيب الفرنج منذ خرجوا الى الساحل وهو سنة
احدى وتسعين واربعمائة الى الآن (٥٨٣) يمثل هذه الواقعة قال ابن الاثير: ولقد
اجتزت بموضع الواقعة بعدها نحو سنة فرأيت الارض ملاءى من عظامهم تبين على البعد
منها المجتمع بعضه على بعض ومنها المنفترق هذا سوى ما جففته السيول واخذته
السباع في تلك الآكام والوهاد

واختلفت الروايات في مقدار عسكر صلاح الدين والصليحي على انه كان نحو جيش الصليبيين اي يزيد عن خمسين الف مقاتل^(١) الا انه كان يزداد كل يوم حتى صار معه في طبرية ثمانون الف مقاتل واجتمع عسكر الصليبيين في الجليل في صحراء صفورية اولاً الى ان كانت هذه الواقعة التي لم تتم لم بعدها قائمة وسقطت مدن الجليل بيد الجيش الصلاحي واحدة بعد اخرى مثل عكا والناصرية وقيسارية وحيفا وصفورية ومعليا والشقيف والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لمكا قلب العمد الاعفاني^(٢) وكانت الفولة احسن قلعة واحصنها واملأها بالرجال والعدد واشحنها وهي للدواية^(٣) حصن حصين ومكان مكين وركن ركين ولم يها منيع منيع ومربع مربع ومسد مسد مشيد ومهاد مهيد وفيها مشاه ومضيفهم ومقرهم ومضيفهم ومربط خيولهم ومجر ذبولهم ومجرى سيولهم ويجمع اخوانهم ومشرع شيعلهم وموضع صليانهم ومورد جهنهم ومقد جمرتهم فلما اتفق يوم المصاف خرجوا باجمعهم الى مصرعهم واثقين بان الكدر لا يتمكن من صفو مشرعهم فلما كسروا وأسرؤا وخسروا وتحسروا طالت المأول الفولة بحدود اهلها المفلولة ودماء داويتها المطلولة ولم يجتمع شمل غمودها بالسيوف المسلولة ولم يق بها الا رعايا رعا وعظمان واتباع واشياع شعاع فعدوا امكان حماية المكاف ووجدوا امنهم في الاستئمان فسلموا الحصن بما فيه الى السكان وكانت فيه اخيرا الفخار وفنفس الاعلاق فوثقوا بما احكموه من الميثاق وخرجوا ناجين بدخلوا في الزمام لاجين وللاسلامة راجين وتسلم جميع ما كان في تلك الناحية من البلاد مثل دبورية وجنين وزرعين والطور والبيون ويسان والقيون وجميع ما لطبرية وعكا من الولايات والزهب ومعليا والعمنة واسكندرونة ومنات

هذه هي عاصمة الجليل وهذا طرف من تاريخها وعمرانها في القديم اما اليوم فخالها حال قرية حنيرة لانكاد تجد فيها شجرة مع اشجارها قديماً بكثرة الاشجار بل ان النخيل الذي كان بكثرت فيها لا تجد له الا اثرأ ضيلاً جداً كما كاد يفقد من ارض الجليل اللهم الا بعض سواحل البحر ولذلك تجد طبرية باقعة مكدة ولو حفت المراف البحيرة بالاشجار لطاب مناخها واعتدل هواؤها وراق للنواغار منظرها واصبحت مصيفاً ومثقى على حد سواء واكر الاهالي كدالى والحكومة لايهمها الا اخذ ما تيسر من الضرائب والعشور

(١) تاريخ سورية للطرائف يوسف الدبى (٢) الفتح القوي في الفتح القدسي

(٣) اعلمهم فرسان المهيكليين

قال لنا احد اصدقائنا من علماء دمشق في الاقتصاد والعمارة زرت طبرية منذ اثنتين وخمسين سنة وزرتها منذ سنتين فلم اشهد فرقا في عمرانها بل رأيتها جامدة لم تتحرك ولولا فندق لالماني ومستشفى الانكليز لرسمت لطبرية نفس تلك الصورة التي عرفت في ذهني منذ نصف قرن ومع ما نشكوه من بطء بلادنا في نهوضها وعمرانها نجد القرى في هذه الحقبة من الزمن قد تغيرت صورتها وانما بسطت رفعتها وحسنت ولو بعض الشيء بقعتها اما طبرية فهي الجرد بعينه ولم يزد الا جالية من يهود الغرب نزوها مهاجرين فكان المسكن الذي ينزله خمسة انفس يؤوي الآن عشرين فتضابق السكان وفسد الهواء واستوبل الماء وافقر اهل البلاد الاصليين لان لسان حال الاسرائيليين والصيونييين خاصة مع جميع الشعوب كما قال ذلك السامري «لامساس»

كان من حق الناصرة ان يسبق الكلام عليها لانها اليوم اعمر بلاد الجليل ومبسط افئدة ام النصرانية ولكنها بلد حديث بانه مبنية لبلاد الجليل بدلا مجدها بانها كانت موطن مريم العذراء عليها السلام وفيها عاش المسيح الى الثلاثين من عمره ولم ير لها ذكر في كلام تدماء المؤرخين ومعنى الناصرة الفرع او الزهرة وهي على ثلاثة عشر ميلا من طبرية ممتدة على شكل نصف دائرة في سفح دائرة من الآكام العالية ويوتها ايضاء نظيفة تحيط بها اشجار الزيتون والتين والصبار وبذلك تأب منها صورة مليحة لاتعب العين من النظر اليها قال رنان^(١) : كانت الناصرة بلدة صغيرة قائمة في طية ارض منبسطة على متن بعض الجبال اما سكانها فانهم يبالغون اليوم اربعة آلاف نسمة^(٢) فكانت الناصرة القديمة لان المؤرخ بوسيغوس يقول ان اصغر قرى الجليل كان عدد نفوسها خمسة آلاف نسمة وان كان هذا القول لا يتخلو من مبالغة . والبرد في الناصرة شديد في زمن الشتاء ولكن الهواء جيد جداً وكانت الناصرة في ذلك الزمن شبيهة بكل قرى اليهود يومئذ اي انها كانت موقلة من منازل مبنية من غير هندسة ولا نظام ومنارها شبيه بمنظر القرى الاسيوية وربما لم تكن منازل الناصرة تختلف عن المنازل الحجرية المربعة القائمة في جهات لبنان العامرة والتي اذا اضيفت اليها اشجار الكرم والتين المغروسة بجانبها كان لها منها منظر رائع .

(١) تاريخ المسيح تعريب فرح انندي انطون

(٢) هذا في زمن رنان وقد ساح في سورية وفلسطين ولبنان بين سنتي ١٨٦٠ و ١٨٦١ وسكن الناصرة اليوم عشرة آلاف

أما المكان الذي بنيت فيه الناصرة فإنه مكان شائق وليس في الدنيا كلها مكان أفضل منه للأمل في السعادة والراحة . ولا تزال هذه المدينة الى اليوم متناماً جميلاً . أما سكانهم فأنهم قوم ألّفوا اللطف والبشاشة وحدائهم باردة خضراء . وقد وصف « انطونين مارتير » الناصرة في اواخر القرن السادس عشر فشبه أرضها بأرض الجنة من فرط خصوبتها . ولا يزال في غربي المدينة أودية خضيرة ينطبق عليها وصفه

أما العين التي كانت مركز الحركة في هذه المدينة وكانت حولها السرور شاملاً فقد هدمت ولا يجرى الآن من نبعها سوى ماء كدر وأما جمال النساء الناصريات اللواتي يجتمعن حولها في المساء من ذلك الجمال الذي كان مشهوراً عنه في القرن السادس عشر أذهتة للناصريات من مريم العذراء فإنه لا يزال يتفرق بين وجوههن فهناك الشكل السوري الجميل في أتم خلفه .

ولا شبهة في أن العذراء كانت تنف في صباها بين أولئك النساء حول العين ومعهم إناؤه الماء لتسقي منها . وقد قال انطونين مارتير أن نساء اليهود بكر من المسيحيين في هذا المكان مع أنهم بكرهنهم كرهاً شديداً في غيره . فكأن هواء وطن السيد لطب أخلاقهم . وإذا نظرت في البغض الديني وجدته في هذا المكان أخف منه في سائر الأماكن .

وأما منظر الأفق من المدينة فإنه قصير ضيق ولكنك إذا صعدت الى الآكام المشرفة عليها أبسط أمامك منظر جميل يسحر الالباب . فإنه من الجهة الغربية يظهر لك جبل الكرمل ممتداً الى البحر وداخلاً فيه وإليه غيره من الجبال بينها وادي الأردن وسهول بيريا المرتفعة . أما في جهة الشمال فأنك ترى جبال صفد متجهة نحو البحر وهي تستر عنك عكا وتظهر لك خليج حيفا .

هذا كان افق يسوع . هذا كان في صباه الشنظر الدائم أمام عينيه . هذا هو مهد ملكوت الله ومسير الديانة المسيحية . فإذا بقي العالم مسيحياً في مستقبل الزمان وصار أكثر احتراماً لاصول الدين واشد رغبة في استبدال الأماكن المقدسة المشكوك فيها بأماكن حقيقية فمات عليه إلا أن يبني كنيسة على هذه الآكام التي كان يسوع يجلس عليها ويشاهد العالم . هناك يجب أن تقام الكنيسة الكبرى التي يجب أن يمجج إليها المسيحيون من جميع أقطار العالم . هناك حيث يرقد يوسف النجار والوف من أبناء الناصرة المنسيين يحق للفيلسوف أن يقف ويأمل في مجرى حوادث العالم المعزي نفسه

عما يصادفه الانسان في هذه الحياة من الفشل والحيرة في اعز ما يكون لديه ولكي يتحقق ان العالم سائر الى غرض الهي لا يصره شيء عنه مهما قام في سبيله من المصاعب والعثرات اهـ .

هذا ما وصف به فيلسوف الفرنسي الناصرة بلديسوع الناصري كما كان يقال له والتي منها اشتق اسم النصارى^(١) وهو وصف ينطبق كل الانطباق على حالتها اللهم الا ما جاء غفو الخمار فكان اشبه بتشبيه شاعر مثل قوله في مكان الناصرة انه « ليس في الدنيا كلها مكان افضل منه للتأمل في السعادة والراحة » ونظن مثل هذا القول يصح اطلاقه على جبال سورية عامة بل جبال الارض كانه في كلها تبعث الروح على التأمل لغواغ الدمن فيها من كدورات المدن وازدحام الانفاس ولما تقع عليه العيون من المناظر الشائنة في هذا الوجود الغريب وكيف كانت الحال فيلادسوف يعذر على ما قال تشائنه وتريبته التي قلما يتجرد منها انسان مهما تزغ ربة النيد والتقاليد ولكن هذا الغلو لا يقدح في جمال هذا البلد الطيب واي بلاد لا تطيب لاهلها .

اما تاريخ الناصرة فله ارتباط كلي بتاريخ الجليل . بيد فلم تدام جيوش كسرى ومولاكو وتيور هذا الانليم فلم من غاراتهم وتخريبهم ولقد قال بعض مؤرخي الافرنج ان التسامح الذي ابداه المسلمون للمسيحيين لم يدم زمنه ماويلا حتى ان وبالبالد لما وصل الى الناصرة سنة ٧٢٥ م لم يجد فيها كنيسة قائمة ومع هذا ذكروا بانه كان فيها سنة ٨٠٨ ثمانية عشر راهبا .

وقتل الامبراطور يوحنا سيميس على العرب واستولى على سورية وفلسطين واحتل طبرية عام ٩٧٥ وجبل تابور والناصرة ولكن ادخل عليه خصيانه السم فعادت الولايات التي اقتنعا فبسطت في ايدي العرب . وقد قال ساولف ان تنكرد لما فوضت اليه بدفع القدس بلاد الجليل سنة ١١٠٠ كانت معاهد الناصرة قد خربها الدرب ولم يبق الا بعضها فاعاد الصليبيون بناءها واتخذوها كنيسة جامعة لهم . ولما سقطت ارض الجليل بيد صلاح الدين بيد وقعة حطين آضت الناصرة ايضا اليه فعمطت على اهلها وفي خلال هدنة العشرين المعهودة بين الصليبيين وصاحب مصر في ٢٠ شباط ١٢٢٩ اصبح فريديك الذي في امبراطور المانيا الحاكم المحكم بالطريق من عكا الى الناصرة فرم هذه المدينة على انها ما كانت قط حصنا مدينا .

وفي شهر آذار ١٢٦٣ قدم من مصر سيف جيش هائل صاحبها الظاهر بيبرس البندقداري وعسكر في مخدر جبل تابور وبث كما قال القس مسترمان برجاله يخرّبون البيع والاديار واطلق الحرية للمسيحيين على ان يدينوا بالاسلام ولكنهم ابوا ووقعت فيها وقعة هائلة قتلوا عن آخرهم . ولورخي الاديار اخبار بلونها واحاديث يقصونها عما لقيه القسيسون والرهبان من المظالم الى القرن الماضي ايام تنفس خناقهم بتولي الظاهر عمر امر الجليل فاصبحوا احراراً في كنائسهم وعباداتهم آمنين من عيث البدو الذي وقع مرتين على الناصرة فغزوا اهلها في عقر دارهم .

وتاريخ الناصرة هو في الحقيقة تاريخ الاديار والعايد فيها وقد قوي سلطانهم منذ جاء بونايرت وحاصر عكا سنة ١٧٩٩ وبث باحد قواده يعسكر في الناصرة وانتهالت الاحسانات على الاديار من ام النصرانية في الغرب على اختلاف لغاتهم ومذاهبهم وما منهم الا من انشأ بيعة حتى بلغت اربع عشرة بيعة وكثيرة ومعظمها من ضخمة البناء وحسن الهندام ما يذكر بقصور الملوك ومنازل المترفين والفرنيسكان اقدم الرهبان وارسخهم قدماً في الناصرة وكثيبتهم مما يزار لبعض الآثار التاريخية فيها ويكتفي انها اثر من آثار الكنائس في القرون الوسطى

وفي الناصرة يشهد التنافس بين اهل المذاهب المختلفة من المسيحيين معلون الذكور والاناث وبلنوتهم ما يباؤون ويطبون المرضى ويعطونهم العقاقير بلا مقابل من اي نخلة كانوا على شرط ان يستمعوا لوعظ الواعظين ونصائح دعاة الدين ولذلك قل سبط هذه البلدة الاميون والجالعون . والقارئون الكاتبون من اهلها من الجفنين اكثر من كل بلد سراها في سورية يعيشون بصدفات الحسنيين ويتقنعون بما تجود به ايديهم الغنياء الغربيين

ولوانصلت الناصرة اليوم بالسكة الحديدية مع خط حيفا على الاقل اولو مد منها خط الى القدس لما حيج حاج من النصارى الا ونزل الناصرة يزور ويترك ولكن من ذلك للحكومة والامة نائدة مادية مهمة فن مدن سويسرا ما يعيش طول سنه مما يفتته الزوار في مصابها افلا يجدر ببلد السيد المسيح ان يعيش اهلها من ريع يأتهم به عشرات الالوف من جمهور المؤمنين من المسيحيين .

« للبحث صلة »